الدياطسرون

في طبعته الجديدة

نظرة نقدية

بقلم المنوري لويس خليل

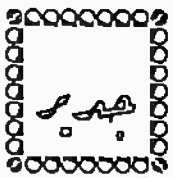

يكل محبّ للدروس الكتابية ، بل يكل عامل على إحياء ما خلّف السلف من روائع الآثار في الادب والعلم ، ان يهلّل فرحاً ويرحّب بهذه التحفة الفاخرة يقدّمها أحد ابناء الامة الآرامية اللامعين ، الاب العالم الجليل ا . س . مرمرجي الراهب الدومنيكي ، والاستاذ في المدرسة الكتابية والاثرية الفرنسية في القدس[1] .

هو « الدياطسرون » اي الرباعي ، ذاك الانجيل الذي جمعه من المبشرين الاربعة الكاتب السرياني الشهير ططيانس (١١٠ ؟ — ١٨٠ ؟) وطالما مثّل دوراً خطيراً في حياة الكنائس السريانية وابحاث جهابذة العلم قديماً وحديثاً .

صنّف ططيانس تأليفه هذا اولاً في اللغة اليونانية ثم نقله الى السريانية . على ان الاصل اليوناني لم يبقَ منه الا قطعة وُجدت حديثاً في حفريات دورا[2] . بل والاصل السرياني نفسه لا يُعرف له اثر حتى الآن ، بعد ان درج السريان على تلاوته الى ايام رابولا مطران الرها († ٤٥٣) الذي ترجم الاناجيل الاربعة الى السريانية ، وهي الترجمة المعروفة « بالبسيطة » ، واسرعان تقوم مقام

(١ A. -S. Marmardji, O. P. : *DIATESSARON de Tatien*. Texte arabe établi, traduit en français, collationné avec les anciennes versions syriaques, suivi d'un évangéliaire diatessarique syriaque et accompagné de 4 planches hors texte. In-8°, CXL+539+84 p. Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1935.

(٢ راجع : Carl H. Kealing, *A greek fragment of Tatian's Diatessaron from Dura*. London, Christophers. 1935.

وايضاً Lagrange : *Un fragment grec du Diatessaron de Tatien*, dans *Revue Biblique*, 1935, p. 321-327.

ترجمة الدياطسرون . بـل ان تيودريطوس ، مطران قورش († ٤٥٧) ذهب الى أبعد من ذلك وعمل على اتلاف تأليف ططيانس فأحرق منـه نحو ٢٠٠ نسخة في ابرشيته وحدها .

ورغم ما تقدّم ، فقد أحرز الدياطسرون مقاماً عالياً في الاوساط السريانية ، لا سيما ان ملفان البيعة « قيثارة الروح القدس » ، القديس افرام ، دبج شرحاً له ، على ما أفاد المؤرخون . غير ان هذا الشرح ايضاً مفقود الآن ، وليس لدينا منه سوى ترجمة ارمنية نشرت بالطبع في البندقية عام ١٨٨٣ .

هذا في ما يتعلق بالنصّ السرياني . اما في لسان العرب فلدينا ترجمة محفوظة في النسخ الخطية التاليـة : النسختان الڤاتيكانيتان نميزهما بالرقمين ١ و ٢ ، والنسخة المصوّرة المحفوظة في المدرسة الكتابيـة الفرنسية في القدس للآباء الدومنيكان ، ونحن نذكرها بالرقم ٣ وهي مأخوذة عن النسخة الخطية الموجودة في المكتبة البطريركية للاقباط الارثوذكس بمصر القاهرة ، واخيراً النسخة ٤ وهي ملك الاب سباط ، ويعتبر الاب مرمرجي انها من فئة النسخة ٣ ومماثلة لها ، وبالتالي فقد اهملها .

وأول من أقدم على نشر الترجمة العربية هو الكردينال تشاسكا[1] ، متخذاً اساساً لعمله هذه النسختين ١ و٢ الڤاتيكانيتين ، ناقلاً الاصل ، الذي اثبته ، الى اللاتينية .

أخذ الاب مرمرجي على عاتقه مقابلة النسخ ١ و٢ و٣ وطبعة تشاسكا فاستخرج منها نصاً جديداً ، اساسه الاول النسخة ٣ ، وذلك بأن اختار افضل عبارة وأضبطها صرفاً ونحواً وبياناً ، وجعل في الحواشي شتى الاختلافات في نصوص سائر النسخ . وكلما كانت العبارة الفضلى المثبتة في الاصل هي ايضاً مشوّشة من جهة التركيب العربي او قواعد الاعراب ، فقـد تركها على حالها منوّهاً في الحاشية عن وجه التصحيح الواجب إدخاله عليها .

وقد سلك الاب الناشر هذا المسلك لما هي عليه الترجمة من ركاكة التركيب والاضطراب في قواعد اللغة . ولم يذكر قياساً آخر لتفضيله هذا بين النصوص الثلاثة .

(١ A. Ciasca, *Tatiani Evangeliorum harmoniae arabicae*. Romae, 1888

اما مصادر الفصول والآيات ، نسبةً الى نصّ الاناجيل الاربعة ، فقد أثبت اكثرها في النسخ الخطية ، وكان تشاسكا نقلها وزاد عليها بعض ما كان منها ناقصاً . فجاء الاب مرمرجي وعيّن هذه المصادر بدقة متناهية ، بحيث حدّد مكان كل كلمة من الاناجيل الاربعة . وفي ذلك امثال عديدة تدهش المطالع ، وتبيّن ما للناشر من طول الباع والهمة في استقصاء كل نافلة وتحديد موقعها . اليك مثلاً واحداً يغني عن ألف : وردت العبارة التالية في الدياطسرون منسوبة بجملتها في النسخة الخطية الى انجيل مرقص دون تعيين الفصل والعدد :

« ولما انفردوا تقدّم تلاميذه وسألوه وقالوا له : ما هذا المثل ولماذا كلّمتهم بالامثال ؟ »

وقد زاد تشاسكا في نشرته على اسم الانجيلي قائلاً انها مأخوذة عن الفصل الـ ٤ العدد الـ ١٠ . اما الاب مرمرجي فقد فصّل مصادرها على الوجه التالي :

« ولما انفردوا (مر ٤ : ١٠) تقدّم تلاميذه (متى ١٣ : ١٠a) وسألوه (لوقا ٨ : ٩a) وقالوا له (متى ١٣ : ١٠b) ما هذا المثل (لوقا ٨ : ٩b) ولماذا كلّمتهم بالامثال (متى ١٣ : ١٠c) »

وهناك ايضاً عبارات وردت في الدياطسرون تكميلاً للمعنى أو لربط الآيات المنزلة ببعضها ، وهي غير موجودة في الاناجيل بل وضعها المؤلف . وقد عيّنها الناشر ، وفصلها عن سائر الآيات .

وبعد ان اثبت الناشر الاصل على هذه الصورة ، ترجمه الى الفرنسية ترجمة حرفية غير عابئ بترويق الكلام ، حاصراً همّه بنقل العبارة العربية كما هي لفائدة المستشرقين .

وقد صدّر الكتاب بمقدمة طويلة بالفرنسية تقع في ١٤٠ صفحة بحث فيها المواضيع الآتية :

١ً ططيانس : حياته ، وتأليفه الدياطسرون . .

٢ً النصّ العربي ، ونسخه المخطوطة ؛ الاغلاط الصرفية والنحوية والبيانية ، التعابير السريانية ، لائحة الكلمات التي اضافها جامع الدياطسرون وهي غير موجودة في الاناجيل ، تحديد مصادر الآيات في الاناجيل ، طريقة الترجمة . وكل هذه الابحاث مدعومة بلوائح مطوّلة تثبت حقيقة ما استنتجه الناشر ، فتجد في هذه الفصول مثلاً لوائح عن الاغلاط والتعابير السريانية ، وعن الإضافات ،

وكذلك عن مصادر الدياطسرون كله .

٣ً يبحث الناشر عن الاصل السرياني للترجمة العربية ، مقابلًا شتى الترجمات السريانية للاناجيل بترجمة الدياطسرون العربية ، مما حمله على القول ان هذه الاخيرة مأخوذة عن « البسيطة » ، وليس عن النصّ السرياني الاصلي لططيانس . وهو يؤكد ان رأيه هذا ثابت بنسبة ٨٠ بالمئة من الاحيان ، مما تؤيده اللوائح المختلفة ، وقد قابل ترجمة « البسيطة » بالدياطسرون وبمخطوطتي جبل سينا وكيورتون (Cureton) بحيث يتبين للقارئ اتفاق الدياطسرون مع « البسيطة » واختلافه عن النسختين الاخريين . بل وقد عيّن ايضاً في الحواشي مواضع الاختلاف بين الدياطسرون و « البسيطة » فاذا بها قليلة .

٤ً من هو صاحب الترجمة العربية ؟ هذا باب يجدر بنا بحثه مع الناشر العلّامة ، لما هو عليه من الخطورة .

يجيب الناشر على هذا السؤال ناظرًا اولًا في النصّ نفسه ومضامينه ، فيبدو له ان المترجم هو : ١ً آرامي ، لان اللهجة العربية وصيغها في الترجمة هي سريانية محضة ، مما جعل التعبير مشوشاً مختلّ التركيب ، — ٢ً نسطوري او من السريان الشرقيين ، لان المؤلف يكتب على طريقتهم « إيسوع » (ܝܫܘܥ) خلافاً للعادة الجارية عند اليعاقبة وسائر السريان الغربيين ممن تعودوا كتابة « يسوع » (ܝܫܘܥ) ، — ٣ً عراقي ، لما هناك من التعابير العربية المختصة بالعراق : المعتزلة = القدريون ؛ الكرخ = المدينة ؛ القرابة = قنينة كبيرة ؛ المكبّة = في الموصل هي سلة كبيرة ؛ رابّ ورابي = الكاهن ؛ شِدَدات = القطة ؛ مخروعة = خائنة ؛ حِلتموه = أتهمتموه ؛ يسبح = يغتسل او يستحمّ ؛ يتحرّقنّ = ينحن ؛ صبيحة = الصباح ، وايضاً الهدية يقدّمها العريس الى آله واصحابه غداة يوم الاكليل .

ثم يتخطّى الناشر الى البرهان الخارجي ، اي التاريخ ، فيقول ان في كلا المخطوطتين ٢ و٣ ، وهما من اصل مشترك ، تصريحاً ينسب الترجمة الى ابي الفرج عبدالله بن الطيب الذي عاش في اوائل القرن الحادي عشر ، وكان عراقياً ، نسطورياً وامين السر لبطريرك النساطرة ، الياس الاول ، وكان عالماً فيلسوفاً

وشارحاً للكتب المقدسة . غير ان هذا القول ينقضه، على زعم الناشر، امران: اولًا ما من احد من كتبة السريان او مؤرخيهم، لاسيما ممن اثبتوا لائحة تآليفه، نسب له ترجمة الدياطسرون. على ان هناك من يعتبر هذا الاهمال غير كافٍ للانكار على ابن الطيب تأليفه هذا. فقد حدث للمؤرخين السريان انهم اهملوا ذكر مؤلفين آخرين هما الآن في المكتبة الڤاتيكانية (شرح المزامير وبحث عن الزواج والطلاق) ولا ريب انهما لابن الطيب ومن قلمه . ومن ثم اذا لم يذكر المؤرخون السريان الدياطسرون في لائحة تآليفه فقد يكون ذلك ناشئاً عن النسيان او الجهل، فلا عبرة به على الاطلاق . غير ان الاب مرمرجي يردّ على هذا القول قائلًا: لا مبرّر لافتراض الجهل والنسيان، اما اذا علمنا هذا الاهمال بان ابن الطيب لم يؤلف الترجمة فعلًا، فلدينا على ذلك برهان، وهو الثاني لنقض قول النسخ المخطوطة، نأخذه مما في التعبير من ركاكة وفي التركيب من تشويش، مما لا يتفق مع ما هي عليه تآليف ابن الطيب العربية من دقة وحسن تركيب، اذ لا يعقل ان تكون هذه الترجمة، كما هي الآن بين يدينا، من قلم ابن الطيب، بل الارجح انها عُزيت له ترويجاً لها، كما كان يغلب حدوثه في تلك العصور .

وتأييداً لما كان لابن الطيب من طول الباع في الانشاء العربي ومتانة في التعبير، ودقة في تطبيق القواعد الصرفية والنحوية، يعرض الناشر بعض الامثال من تآليفه العربية مأخوذة عن مخطوطات محفوظة في المكتبتين الڤاتيكانية والباريسية الوطنية . اليك مثلًا هذا النص كما ورد في ترجمة الاناجيل لابن الطيب، نعرض بجانبه ما يقابله في الدياطسرون، فترى ما بينهما من الفروق الشاسعة في التعبير وسبك المعاني:

الدياطسرون ٧: ٢٤-٢٥	ابن الطيب: مرقس ٢: ٢١
ليس يلقي انسان رقعة جديدة ويخيطها في ثوب بال. لئلا تأخذ جدة الجديدة من البالي، ويحدث خرق عظيم . ولا يجعل انسان شراباً طرياً في زقاق بالية، لئلا يخرق الشراب الزقاق، وهلك الزقاق، وينهرق الخمر . لكن يلقون الشراب الطريّ في الزقاق الجدد.	لا يرقع احد ثوباً بالياً برقعة جديدة، لئلا تأخذ قوة ذلك الجديد من الخَلَق فيزيد خرقه . ولا يطرح انسان خمراً حديثة في زقاق مُخلَقَة، لئلا تذري الخمر الزقاق، وهلك الزقاق، وتنصبّ الخمر. لكن تُلقى الخمر الحديثة في الزقاق الجُدد.

B. N., Paris, MS 86.

وهناك امثلة اخرى اوردها الناشر ، اذا قابلتها بلغة الدياطسرون تحققت فوراً ان هذا الاخير ، كما هو الان ، ليس فيه ما يجعله مقارناً لسائر تآليف ابن الطيب .

وتوغل الناشر في اثبات رأيه هذا ، فتذرع بالحجة التالية : صُدّرت مجموعة الاناجيل المخطوطة ٤ المرجودة لدى الاب سباط ، وهي من القرن الـ ١٢ ، بمقدمة مما جاء فيها :

« جمعتُ منها (الاناجيل الاربعة) انجيلاً واحداً ، وكان قد تقدّمني في ذلك جماعة من الافاضل ، من جملتهم القس الفاضل ، ابو الفرج بن الطيب الشرقي ، رحمه الله . فلما وقفتُ على الانجيل الذي جمعه ، وقابلت به على الاناجيل المحرَّرة ، المتّفق على صحتها ، من السرياني والقبطي والرومي ، وجدته قد اهمل بعض النصوص الانجيلية وحذفها من الاصل بالكلية ... فاصلحت ذلك جميعه ... واعتمدت في ترصيعه وترتيبه على فصول اللسان القبطي . فان من يعتمد على لغة قومه ، يصيب ولا يخطئ ... » .

فالاب مرمرجي يرى في هذا القول ما يؤيد نظريته في ان ابن الطيب لم يترجم « الدياطسرون » ، بل ألف مجموعة من الاناجيل الاربعة ، كما كانت العادة جارية في تلك الازمنة ، دون ان يكون اية صلة بين هذه المجموعة وتأليف ططيانس ، وقد اهمل كاتبنا القبطي حتى ذكره .

على ان في مثل هذه الحجة شيئاً من المبالغة ، من شأنه ان يؤيد أيضاً وبالوقت نفسه عكس ما يريد البحّاثة الدومنكي ، من حيث ان حجته هذه تتعدّى الى ابعد ما يتوخى بيانه . فالاب مرمرجي يسلّم بان مؤلف المخطوطة الـ ٤ رجل عالم يعرف قيمة كلامه ، وان مجموعة ابن الطيب كانت بين يديه ، فتقبّلها واستعان بها لتأليف مجموعته .

فأين هي هذه المجموعة ؟ وكيف لم يبقَ لها من اثر ؟ بينما في محل آخر يصرّح الاب مرمرجي ان بين المخطوطة الـ ٤ القبطية ، والمخطوطة الـ ٣ صلة وثيقة من جهة الاصل . فلا بدّ من القول ، بناء على هذه الشهادة التي يخلّها الاب مرمرجي مكاناً عالياً في معرض كلامه ، ان الترجمة التي لدينا هي لابن

الطيب ، وان كانت مشوشة العبارة والانشاء . وهـذا اول وجه للتناقض في بحث الاب الناشر . بل مما تقدّم يتبين وجه آخر لهذا التناقض، وهو ان النصوص، التي نحن بصددها الآن والمدوّنة في مخطوطات الڤاتيكان وبطريركية الاقباط، لا تنتمي بشيء الى الدياطسرون الاصلي لططيانس، اللهمّ الا بما يتعلق بالمشروع الاساسي ، اي تأليف مجموعة للاناجيل الاربعة وحسب .

فلو ان ابن الطيب ألّف مجموعـة ، فهي ، في رأي الاب مرمرجي ، تأليف خاصّ قام به ابن الطيب لا علاقة له بالدياطسرون لططيانس.

ونحن ايضاً على هذا المنوال ، يمكننا القول ان الدياطسرون العربي الذي يذيعه الاب العالم على جمهور العلماء لا ينتمي بصلة الى الدياطسرون الاصلي . لا سيما وان حضرته اثبت ان هذه الترجمة العربية لم تؤخذ عن ترجمـة ططيانس السريانية بل عن « البسيطة » .

وايضاً كما انه ينبذ ما جاء في التصريحين المثبتين في صدر المخطوطتين ١ و٢ وفي خاتمة المخطوطة ٢ ، في ما يتعلّق بنسبة الترجمة لابن الطيب ، يتحتم ايضاً وبالتالي نبذ القسم الآخر من هذين التصريحين ومن خاتمتي المخطوطتين ١ و٢ حيث يعيّن جليّاً ان التأليف هو الدياطسرون وان صاحبه ططيانس . ومن ثمّ كان على الناشر ان ينبذ تماماً من تأليفه عنوان « الدياطسرون » ونسبتـه لططيانس بعد ان نبذ اسم ناقله الى العربية ، فيكتفي بتسميتـه « مجموعة الاناجيل الاربعة » . اما وقد قبل بالقسم الاول من المقدمة فكان عليه ان يسلم بالآخر ، اذ لا يجوز السلب والايجاب في موضع واحد وضمن حدود واحدة.

كذلك « الاناجيل الدياطسرية » المنشورة في ملحق الكتاب تؤيـد هذه النظريـة القائلة ان العادة جرت بجمع بعض الفصول الانجيليـة من المبشرين الاربعة طبقاً لحاجة الطقوس وفائدة المؤمنين . على ان هذه المجموعات لا تمتّ بصلة الى الدياطسرون الذي ألفه ططيانس.

هذا في ما يتعلق بصاحب الترجمة ونسبتها الى الاصل السرياني . وقد كنا نرغب لو ان المؤلف العلّامـة نشر القطعة اليونانية من الـدياطسرون التي اكتُشفت في دورا ، وبيّن صلتها بمجموعتنا هـذه . وكذلك تمنينا لو انه

تكرّم ببعض المعلومات عن الترجمة الارمنية لشرح القديس افرام للدياطسرون ، وما قد يكون بينها وبين مجموعته من الصلات ، لعله كان اكتشف في هذا الشرح بعض الدلائل التي تهدينا الى معرفة شيء من حالة الدياطسرون الاصلي . كما واننا لم نفهم لماذا لم يضف ، الى النسخ التي عارضها ، المخطوطة الـ ٤ خاصة الاب سباط ، وتلك التي في المكتبة الشرقية لكلية القديس يوسف ببيروت . لا سيما وان هذه الاخيرة تتألف من ورقتين فقط يرتقي عهدها الى منتصف ك ٢ ١٣٥٢ و نُقلتا « عن نسخة عتيقة جدًا . »

واخيرًا نأسف لكون حضرته لم يكتفِ بنصّ مخطوطة واحدة بثبته في المتن ، كما هو ، دون ما تغيير ولا تعديل ، ولا زيادة علامات الشكل والوقف ، مدوّنًا في الحواشي وجوه الاختلاف بين شتى المخطوطات . فلو اتّبع هذه الخطّة المثلى ، كما اعتاد الآن العاملون في نقد النصوص الخطية وناشروها ، لكان تسنّى للمنقبين معرفة النصّ الحقيقي للنسخ وما بينها من الصلات ووقفوا على حالة اللغة كما كانت لما أُلف الكتاب . اما في النشرة الحاضرة فيشقّ على الدارس غربلة ما لديه من المواد المختلفة ، ويتعذّر عليه نسبتها الى المخطوط الاصلي ومعارضتها مع غيرها . وهذا خلل لا يستهان به في مثل هذه الابحاث التي غايتها ان تكون اداة صالحة لدروس جديدة .

على ان تأليف الاب الدومنيكي العلامة طافح بالفوائد والمحاسن العميمة التي من شأنها ان تسدل ستارًا واسعًا على ما قدمنا من التحفظات النقدية . ولا يسع كل مطالع الا ان يُعجب لما اقتضى التأليف في صاحبه من جهود طويلة ومعارف واسعة .

والكتاب كبير الحجم في نحو ٧٨٧ صفحة ، حسن التنظيم والتنسيق ، جميل الورق . وعدا محاسنه العلمية القيمة ، فانه يُعدّ من حيث حسن طبعه تحفة فنية ، بديعة ، لا سيما وقد اشتبكت فيه مختلف الحروف الفرنسية والعربية والسريانية مما يستدعي كثيرًا من العناية والدقة وتستحق عليه المطبعة الكاثوليكية التي تولت طبعه غاية الشكر والثناء . فنشكر للاب العالم هديته الرائعة وندعو له بأيد الله لمتابعة جهوده في خدمة الكنيسة بواسطة ابحاثه القيمة وعلومه الواسعة .